إعجاز النظـــم القرآنـــي في فواتـــح الســـور ــ دراسة أسلوبية سـورتي الأنعام وفاطر أنموذجاً

د.عائشة محمّد الغويل *
قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا .
a.alghwail@edu.misuratau.edu.ly

تاريخ الاستلام 24/ 5 / 2025م تاريخ القبول 30/ 10 / 2025

The Inimitability of Qur'anic Structure in the Surahs' Openings : A Stylistic Study of Surahs Al-An'am and Fatir as Models

Aisha Muhammad Al-Ghweil

Abstract

This study aims to shed light on the eloquence of the Qur'an through its stylistic features. It focuses on the coherence between meaning and structure. The stylistic approach provides an analytical way that reveals the beautify aspects of meaning, uncovering the subtle implications that arise from the internal eloquence of the Qur'anic text. This paper concentrates on the openings of the two Surahs because of their rhetorical excellence in the opening, which serves two sides: first, to refer to the whole purpose of the Surah, and second, to reveal the precision of the Qur'anic structure through the harmony between the stylistic features at the beginning and the underlying purposes of the verses.

The study demonstrates to the significance of the diversity of Qur'anic styles whether through variations in morphological forms, shifts in the use of particles of meaning, or other rhetorical techniques in revealing the unique meanings of each Surah, even when their openings may appear similar.

Keywords: styles, lexical polysemy, ellipsis and brevity, active participle, hierarchical sequencing.

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

الملخّـــــص:

تهدف هذه الدّراسة إلى إبراز ما يتعلّق ببلاغة القرآن الكريم من جهة الأسلوب الذي هو اتصال عرى المعنى على وفق ترتيب معاني التراكيب إذ أن الدراسة الأسلوبية تقدّم تحليلاً للمعاني بما يجلو الجوانب الجمالية من جهة المعنى فيظهر من خلاله الدلالات الخفية المترتبة على استيضاح بلاغة النص الداخلية، وقد عمدت الدراسة إلى مطالع السور القرآنية لما فيها من براعة استهلال تخدم النص القرآني بجانبيه؛ الأول: الإشعار بمقصد السورة الكلي، والآخر: إظهار دقة النظم القرآني من حيث مناسبة الأساليب الواردة في مستهلها مع الأغراض المعنوية المسوقة لها تلكم الآيات.

وقد ظهر جليّاً من خلال الدراسة فائدة تنوع الأساليب من حيث الاختلاف في الصيغة الصرفية والعدول في استعمال أحـرف المعاني وغير ذلك من فنون الكلام في إدراك المعاني المستقلة لكل سورة حتى وإن بدا تضارعاً في استفتاحها.

الكلمات المفتاحيـــــة: الأساليب، المشترك اللفظي، الحذف والإيجاز، اسم الفاعل، التراخي الرتبي.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، أمّا بعد:

فإنّ القرآن الكريم كلام الله جمع في دقة لفظه وعلو بيانه بلاغة فاقت ما يسع الدارس لها استقصاؤها؛ وهذه السمة هي وجه من وجوه إعجازه، وكلّ ذلك يبرز من خلال دراسة الخصائص اللغوية التي تبرز جمال المفردة وظلالها التعبيرية للوقوف على دقة المراد، والبحث في كوامن اختيار تصريفها وصفات مخارج أحرفها لاستظهار ما يختلج في النفس عند مجرّد الاستماع، فكلّ مفردة منه هي بمنزلة الركيزة لما حولها فلا يتأتى لغيرها من الألفاظ أن تسُدّ مسدّها وهذه الخصيصة اللفظية تجعل اللفظ منسبك في سياقه يظهر جمال الرصف في التركيب القرآني وذلك يضارع جمال الأساليب البلاغية التي بنيت عليها الآيات الكريمة، وسبر جميع ذلك هو ما يسميه المعاصرون بالتفسير الأسلوبي، وهذه الدراسة جاءت للنظر بوجه مخصوص في أوائل السور ولمّا كان الموضوع جديراً بدراسات معمقة وجد الباحث أن لا غنى له عن تحديد دراسته بسور محددة هما سورتي: الأنعام وفاطر.

مشكلة الدراســـة وتساؤلاتها:

تجيب الدراسة على جملة من التساؤلات المتعلقة بجمالية الأسلوب في النظم القرآني ومن ذلك:

1. ما الظواهر الأسلوبية التي برزت في السورتين؟
2. كيف وظّفت التراكيب في أول السورتين للدلالة على موضوعاتها؟
3. ما الفائدة البلاغية من السبيكة القرآنية الذين كفروا في مستهل سورة الأنعام؟
4. ما أثر صيغة الفاعل جاعل في بيان دقة المعنى المراد من الحمد في سورة فاطر؟
5. ما الغرض استهلال سورة فاطر بفاعل الفطر دون الخلق الذي استهلت به سورة الأنعام؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى جملة من الأمور منها:

1. بيان ما تضمنه مطلع السورتين من أوجه البلاغة القرآنية على وجازة ذلك القدر من القرآن الكريم.
2. كشف البناء الأسلوبي لمطلع السورتين وإبراز خصيصة المعاني التي تفرّد بها كلّ منهما.
3. إبراز دقة النظم في مطلع السورتين من خلال الدراسة الأسلوبية للنواحي الدلالية.

أهمية الدراسة:

1. يسهم البحث في الكشف عن وجوه متعددة من الاعجاز اللغوي للقرآن الكريم.
2. يبرز البحث براعة الاستهلال في السور القرآنية فالإفصاح الجيد في أول الكلام أدعى إلى معرفة المقصود.
3. يبرز البحث العلاقات الدلالية بين المفردات بما يظهر جمالية الاختيار للمفردة ودقة صياغة التركيب.

الدراسات السابقة ذات الصلة:

تعددت الدراسات عن سورتي الأنعام وفاطر وعن فواتح السور القرآنية؛ ولكنّ أقرب الدراسات لموضوع البحث هي الآتي:

1. الحمد في فواتح السور "معاني ودلالات"، لصالح عبد الرحمن الدرويش، مجلة كلية الشريعة والقانون بأسيوط، جامعة الأزهر، ع 31، ج 2.
2. براعة الاستهلال في فواتح سور القرآن الكريم، لزكي صبري محمد، حولية مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، مج 3، ع 23.
3. التقابل الدلالي في سورة فاطر "مدخل أسلوبي بلاغي" بحث محكم لعبد الرحمن
4. العوضي، مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة العلوم الإسلامية، الأردن، ع2، مج 6، 2019 م.
5. الظواهر الأسلوبية في سورة الأنعام، بحث محكم للباحثين: حسين كياني، سمانة قلاوند، مجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها، نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية، جامعة أصفهان، ع 10، 1393 هـ. ش.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على ثلاثة مناهج علمية هي: المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، والمنهج الاستنباطي.

خطة الدراسة:

تنقسم خطة البحث إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأسلوبية وعلاقتها بالنظم القرآني

المطلب الثاني: موضوعات السورتين وأسلوبيهما

المطلب الثالث: أسلوبية الدلالات اللغوية في مطلع السورتين

المطلب الأول ـ الأسلوبية وعلاقتها بالنظم القرآني:

الفرع الأول ـ الأسلوب في اللغة والاصطلاح:

أولاً ــ في اللغة : الأسلوب في اللغة مفرد أساليب أطلقه العرب على معانٍ منها: السطر من النخل، والمذهب والطريق والوجه؛ أي كل طريق في الشيء فهو أسلوب (الأزهري، 2001 م، صفحة 12/ 302؛ الجوهري، 1987 م، صفحة 1/ 149)، أفعول من أصله سَلَب ويطلق على كلّ ما طال وامتدّ (الكفوي، بلا، صفحة 82 _ 83) أمّا أصله سلب فهو أصل صحيح واحد يدلّ على الأخذ بخفة وخفاء (الرازي، 1399 ه، صفحة 3/ 92).

ويلاحظ معنى أصله الأخذ بخفة في أنّ الأسلوب يطلق على الكلام المنتظم في خفة ليأخذ الكلام إلى معنى بلاغي يخفى في ظاهره ويبرز عند التمحيص، وامتداد الكلام على ذات النسق والانتظام هو ما يسميه أهل النقد بأسلوب المتكلم شاعراً كان أو أديباً.

ثانياً ــ في الاصـــطلاح عرفّ الأقدمـون الأسلوب في الاصطلاح على أنّه: "الضْربُ مِنَ النْظم والطريقةُ فيه." (الجرجاني، 1413 ه، صفحة 469) وقال القرطاجني: "هيأة تحصل عن التأليفات المعنوية" (القرطاجني، 1986 م، صفحة 364). وعرّفه ابن خلدون في سياق بيانه لخصائص الشعر فقال: "صورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب والمنوال" (خلدون، 2004 م، صفحة 2/ 397). وعرفه المحدثين بتعريفات متقاربة فقال بعضهم: "ما ندر ودقّ من خصائص الخطاب التي تبرز عبقرية الإنسان وبراعته فيما يكتب أو يلفظ" (المسدي، 1982 م، صفحة 70) وعرّفه الشايب بأنَّه: "الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني" (الشايب، 2003 م، صفحة 46).

أمّا الأسلوبية فهي: "علم لساني يُعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة" (المسدي، 1982 م، صفحة 56)، أي : أنّ الدراسة الأسلوبية للنّص تُعنى في حقيقتها بدراسة كيفية ما يقال من حيث تولّد واستنطاق معاني وتأثيرات جمالية؛ ولذلك عرّفه بعض: "دراسة الخصائص اللغوية التي يتحول بها الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية"(المسدي، 1982 م،ص 36).

الفرع الثانـــي ـ النظم في اللغة والاصطلاح

أولا ـ النظم في اللغة : النظم من الجذر نظم أصل صحيح واحد يدلّ على تأليف الشيء، وكلّ شيء ضُمّ بعضه إلى بعض أو قُرن بآخر فقد نُظِم (الرازي، 1399 هـ، صفحة 5/ 443؛ ابن منظور الأفريقي، 1414 ه، صفحة 12/ 578).

ثانياً: النظم في الاصطـــلاح : عرّفه عبد القاهر الجرجاني بأنّه: "هو توخي معاني النحو" (الجرجاني، 1413 هـ، صفحة 81)، وقال القزويني نقلاً عن الجرجاني بأنّه: "النظم تآخي معاني النحو فيما بين الكلم، على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام" (القزويني، بلا، صفحة 1/ 44) وقال الجرجاني: " تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل" (الجرجاني ع.، 1983 م، صفحة 242). ولمّا كانت الأسلوبية نظر في السمات اللغوية والأدبية المتكررة في النصّ، وتحليل العلائق الفنية للتعبير عن الدلالات فيه، فإنّه يمكن إنّ يُعد النظم الذي هو توخي معاني النحو في ترتيب وتناسق المفردات في سياق النّص اللبنة التي يُبنى عليها معرفة السمات اللغوية المتكررة التي هي موضوع الدراسات الأسلوبية.

المطلب الثاني ـ موضوعات السورتين وأسلوبيهما:

الفرع الأول: ســـورة الأنعام

استهلت السورة بإثبات تفرّد الله سبحانه بالربوبية فهو مبدع العوالم جواهراً وأعراضاً، وابتدأ سبحانه ذلك جميعه ببيان استحقاقه للحمد؛ وفي ذلك إبطال لتأثير ما يدّعون له من الشركاء في مقام الألوهية، فقال – سبحانه- : **(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)** [الأنعام: 1]، ثم ألمح سبحانه إلى أمر الآخرة ببيان انقضاء الأجل في الدنيا وفي ذلك وعيد بتحقّق ما جاء من وعيد في حقّ الكافرين. ثمّ ذكرت طبائع الكفّار المعاندين، وأعقب ذلك إنذارهم بسوء المصير إذا ما تمادوا في جحودهم لما سيق لهم من الآيات، وختم ذكر حالهم بذكر ما حل بالذين سبقوهم من المكذبين وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر مالاً، فقال تعالى: **(فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ)** [الأنعام: الآية: 5 – من الآية: 6] وختم جميع ذلك بذكر رحمته لمن أناب من عباده وأنّ الذين كفروا قد خسروا أنفسهم بخسران دخولهم في رحمته.

وبإنعام النظر فإنّ الأسلوب القرآني فيها جاء متناسقاً مع موضوعها إذ جاء مستهلها مجملاً، ثمّ فُصِّل كل أصل من موضوعاتها في ثنايا السورة بأسلوب الحوار، وفي كون أسلوب الحوار هو الأسلوب الأظهر في السورة الكريمة إذ هو الوسيلة التي تكون بها المحاجّة عند الاختلاف، ويمكن تقسيم صور الحوار فيها إلى سبعة صور، حوار الله تعالى مع المشركين، ثم حوار المشركين مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وحوار إبراهيم عليه السلام مع قومه، وحوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع المشركين، ثم حوار الرسول مع المؤمنين، وحوار الملائكة مع المشركين، وحوار الله مع المؤمنين.

وكلّ صورة من هذه الصور تميزت بخصائص أسلوبية تتناسب وحال المقصود من الحوار القرآني، وقد اتكأ الحوار في جميع ذلك على أسلوبين هما: أسلوب التقرير الذي هو: "حمل المخاطب إلى الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده ثبوته أو نفيه" (ابن هشام، 1985 م، صفحة 26)، وأسلوب التلقين وهو: " تلقين السامعِ المتكلم ما يراه حقيقاً بأن يلحقه بكلامه" (ابن عاشور، 1984، صفحة 1/ 704).

أسلوب التكرار: برز في السورة أسلوب التكرار من خلال تكرار بعض المفردات ومنها: لفظ "رب" جاء في السورة 50 مرة، في أربع عشرة منها مضافاً إلى ضمير الخطاب المفرد، وفي عشر منها مضافاً إلى ضمير الغائب وفي جميع مواضعها كانت تعود على أهل الشرك وفي لفظ الرب دلالة على تصرفه في شؤونهم حال حياتهم ومن ثمّ في أخراهم، وفي عوده عليهم بضمير الغائب "هم" استبعاد لهم، وفي باقي مواضعها مضافاً إلى ضمير المتكلم، وفي إضافته لضمير الخطاب والمتكلم كان الضمير يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وفي ذلك إشارة إلى شدّة الاتصال ومشعر للرسول صلى الله عليه وسلم وأبيه إبراهيم عليه السلام بتأييد الله سبحانه لهما وفي ذلك تسلية لنفسيهما، فإن انصرف الخطاب إلى غيرهما كان فيه دلالة على أنّ محمد صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق الذي يهدي إلى الصراط المستقيم وأنّ ما أمر به صلى الله عليه وسلم جميعه من أمر الله سبحانه.

وتكرر خلال السورة لفظ الجلالة "الله" سبحانه سبعين مرّة وهي بذلك أكثر سورة ذكر فيها اسمه تعالى وفيه إشارة إلى المقصد الرئيس من الرسالة وهو توحيد الله تعالى في العبادة وتقديسه دون سواه.

تكرر الفعل "قل" في ست وعشرين مرة في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم عن أصول العقيدة لإظهار الاهتمام بموضوعها الرئيس وهو توحيده سبحانه وتعالى وفي ذلك دلالة على قطعية حكمه تعالى في سياق تبليغ حجته على عباده في توحيده. (شلتوت، 2004 م، صفحة 303 _ 305)،

تكرر في السورة الكريمة ضمير الفصل "هو" جاء في تسعة وثلاثين موضعاً جلّها في رؤوس الآيات وفي ذلك دلالة صريحة على معرفة المخاطبين بالحجة بفضله وإنعامه عليهم وأنّه متفرّد في ذلك؛ فإنّ أنكروا ذلك لزمهم الاستدلال على خلافه وليس لهم في ذلك سبيل.

أسلوب التقديم والتأخير: تميزت السورة بجريان أسلوب التقديم والتأخير فيها وكان أبرزها على ثلاث صور: تقديم شبه الجملة "الجار والمجرور" وتقديم الخبر على المبتدأ في سبع وعشرين مرة؛ يقول الجرجاني: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة ... ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان." (الجرجاني، 1413 ه، صفحة 1/ 106)، وذلك لإظهار الغرض الأصلي وإبرازه

بالاختصاص إذ من فوائد التقديم والتأخير الكشف عن الدلالة البعيدة للمتقدّم الواقع في البنية المعيارية الأصيلة للتركيب في مقام متأخر، فقرينة الرتبة تعدّ قرينة نحوية ووسيلة أسلوبية، فهي في النحو قرينة على المعنى، وفي الأسلوب وسيلة لتقليب العبارة لاستجلاب معنى أسلوبي (حسان، 1993، صفحة 91)، وجاء في هذه السورة بأغراض عدّة منها تأكيد اختصاص الله سبحانه بالحاكمية **(وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)** [الأنعام، الآية: 13] فقد دلّ تقديم شبه الجملة على اختصاصه سبحانه بجميع الساكنين فيهما وحصرهما في جميعاً في ملكه دون سواه؛ وهذا دالٌّ على تمام الملك الذي يتناسق وموضوع السورة وهو تفرّده بالخلق والإيجاد وأنّه بذلك يلزم لهم إفراده بالعبادة، وفيها إشارة إلى سعة وتمام علم الله بمخلوقاته فالساكن لا حركة له يشبه الخفي فمعلوم أنّ المالك يعلم بأحوال مملوكه أي أنكم لابد محاسبون فمن يختص بعلم الخفايا يختصّ بسعة القدرة وفي ذلك إشارة بالمعنى الجزاء والمحاسبة (البيضاوي، 1418 ه، صفحة 2/ 156؛ ابن عاشور، 1984، صفحة 7/ 155).

ومن صور التقديم والتأخير فيها تقديم المفعول على الفعل وفاعله في قوله تعالى: **(قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)** [الأنعام: 14] قُدِّم المفعول الأول (غير الله) عن عامله لحصر التشنيع عليهم لا في اتخاذ الولي وإنّما في أنّ يكون غيره تعالى هو المتخذ وليّاً لهم (ابن عطية الأندلسي، 1422 ه، صفحة 2/ 273؛ الفخر الرازي، 1420 ه، صفحة 12/ 491).

أسلوب الالتفات: يعدّ الالتفات من الأساليب البلاغية التي تثير فكر السامع وتنشط عقله، وقد جمعت سورة الأنعام صور الالتفات جميعها بما يزيد عن ثلاثين موضعاً فيها بما يتناسب مع موضوع السورة الكريمة الذي مداره تقرير أصول الاعتقاد والاحتجاج لها.

من الغيبة إلى الخطاب: (أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ) [الأنعام، الآية: 6] والضمير في «يروا» قيل: عائد على المستهزئين، والخطاب في «لكم» عائد إليهم كذلك وعلى هذا يكون في الآية التفاتاً يفيد التعريض بقلّة تمكين الله سبحانه لهؤلاء ونَقْصِ أحوالهم عن أحوال الأقوام السابقين يكون الهلاك إليهم أسرع، (السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، بلا، صفحة 4/ 538)، والمواجهة في هذا المقام أبلغ وأردع إذ واجههم بضعف حالهم تبكيتاً وإشعاراً لهم بالضعف والذلة.

من الخطاب إلى الغيبة: (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) [الأنعام، من الآية:3] وقوله تعالى: **(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)** [الأنعام، الآية: 4] بعد أن بيّن سبحانه وتعالى تفرّده بالألوهية في السماوات والأرض أكّد ذلك بأن نصّ على كمال علمه بيّن في الآية التالية لها أنّ أهل الكفر على الرغم من جميع ما جاءهم من الحجج الدالة على صدق رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلاّ أنّهم يصرون على التكذيب برسالته؛ لذلك جاء بيان حالهم مع الرسول على جهة الالتفات من الخطاب إلى الغائب لما في الالتفات هنا من إشارة إلى إبعاد الله لهم وإعراضه سبحانه عنهم، وتعريضاً بذميم أفعالهم. (العمادي، بلا، صفحة 3/ 190؛ ابن عاشور، 1984، الصفحات 7/ 133 - 134).

من الغيبة إلى التكلم ومن التكلم إلى الغيبة: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ) [الأنعام: 34] في الآية أسلوبي التفات، الأول من الغيبة في قوله تعالى: [بِآيَاتِ اللَّهِ] إلى التكلم في قوله تعالى: [نَصْرُنَا ۚ] وكان يقال في غير القرآن الكريم نصره وعدل عنها النظم الحكيم إلى ضمير المتكلم الدال على الفاعلين لإبراز اعتنائه بهذا النّصر وإشعاراً بعظمته وفي ذلك دافع لأهل الإيمان للصبر على الأذى (أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 1420 ه، صفحة 4/ 490؛ العمادي م.، بلا، صفحة 3/ 128)، والثاني التفات من التكلم في قوله تعالى: **[نَصْرُنَا ۚ]** إلى الغيبة في قوله تعالى: **[لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ]** والالتفات إلى الاسم الجليل فيه تنويه بعلة استحكام سننه تعالى في خلقه؛ فالألوهية توجب غلبته سبحانه في كل أمر وهذا مشعر بالمهابة لإدخال الروع قلوبهم (العمادي، بلا، صفحة 3/ 128؛ الألوسي، 1415 ه، صفحة 4/ 130).

من التكلم إلى الخطاب: في قوله تعالى: [قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] [الأنعام: 164] التفات من التكلم في قوله تعالى: [أَبْغِي] جاء الفعل مسنداً إلى ياء المتكلم ثمّ عُدِل عنها إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: [ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ] وجاز في غير القرآن الكريم أن نقول: "إلى ربي مرجعكم" وفي ذلك تنبيه للمتلقين بأنّ الرجوع سيكون إلى ربكم أي من تفتقرون إليه وفيه إشعار بالوعيد لهم على كفرانهم توحيد ربهم بالعبادة (أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 1420 ه، صفحة 4/ 705؛ العمادي م.، بلا، صفحة 3/ 207).

أسلوب الطباق: يعدّ الطباق من الأساليب البلاغية التي تجلّي المعنى في ذهن المتلقي لكونه يعتمد على وجود لفظين متضادين في التركيب الواحد سيقا لإبراز المعنى وجعله أكثر وضوحاً، وقد حفلت سورة الأنعام بهذا الأسلوب فجمعت بين أنواعه في سبع وأربعين آية منها، جاء في قوله تعالى: **(وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)** [الأنعام، الآية: 59] ثلاث مواضع للطباق، الأول: طباق سلب (لا يعلمها) و(يعلمها)، الثاني: طباق إيجاب: (البر) و(البحر)، الثالث: طباق سلب: (لا رطب) و(لا يابس).

الفرع الثاني ـ سورة فاطر

صُدِّرت سورة فاطر بإثبات القدرة الكاملة للباري عز وجلّ فهو المتفرد بالإيجاد عن عدم، والمبدع بتصريف طبائع مخلوقاته وشؤونها؛ ولا أدلّ من ذلك على تفرّده سبحانه بالربوبية المستحق لمجامع الحمد والثناء على نعمة الإبقاء الثاني الذي يكون به الجزاء؛ وفي ذلك ملحظ إبطال لزعمهم الشركاء له في مقام الألوهية إذ لم يكن في عقائد أهل الشرك ادعاء الإحياء بعد الموت لآلهتهم يُفهم ذلك من قولهم الوارد في القرآن الكريم في قوله تعالى: **(وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)** [الأنعام، الآية: 29]، ثمّ استأنف سبحانه الآية بعدها ببيان أسباب رحمة لا متصرف فيها سواه من مطر ورزق وصحة، ومفاتح هذه الخيرات جميعها بيده لا بيد سواه ويرسلها في خلقه كيف يشاء، وقد ختم سبحانه بيان خلقه وإبداعه ونفاذ مشيئته وأسباب رحمته؛ بأن ذكر في الآية التي تليها تمام نعمه عليهم رباً بالخلق والرزق وذلك مستوجب لعبادته دون سواه (البقاعي، بلا، صفحة 16/ 1). يُعدّ التناسق الموضوعي ظاهراً بين مقصد سورة فاطر وكونها آخر السور المستفتحة بالحمد للبارئ عزّ وجل؛ بالنّظر في مقصدها الذي هو بيان كمال القدرة الإلهية في أظهر صورة وأحكمها، وجاء مستهل السورة مجملاً في الآيات الثلاثة الأولى، ثمّ فُصِّل كلّ محور من محاورها الأربعة وهي:

1. بداية كلّ خلق وإعادة إحياء الله - سبحانه - بعض مخلوقاته في الدنيا استدلالاً بها على وجوب توحيد الله عزّ وجل، وكذلك البعث والنشور، ومنها: قوله تعالى: **(وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ)** [فاطر، الآية: 9]، وقوله تعالى: **(وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ**

جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)[فاطر، الآية: 11]

2. تفصيل طبائع المخلوقات من حيث اختلافهم وتجانسهم، ومنها قوله تعالى: **(إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ)** [فاطر، الآية: 6]، وقوله تعالى: **(وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)** [فاطر، الآية: 12]، وقوله تعالى: **(يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ)** [فاطر، الآية: 13]

3. بيان أحوال الناس في سماع الرسل عليهم السلام ومن ثَمّ بيان أحوال الفريقين يوم القيامة، ومنها قوله تعالى: **(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)** [فاطر، الآية: 7].

ولذلك عدّ بعض العلماء سورة فاطر تفصيل لسورة الفاتحة قال التفتازاني: "فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة" (البقاعي، بلا، صفحة 16/ 1)، وعدّها الغزالي مشابهة لسورة النّحل في كونها إحصاء لنعم الله على خلقه إيجاداً وإمداداً (السقا، 2000 م، صفحة 335).

لمّا كان مقصد السورة بيان قدرة الله تعالى وظهور ذلك في بديع صنع مخلوقاته واختلافها؛ ناسب أن يكون الطابع الأسلوبي المسيطر عليها هو الثنائية في عرض الموضوعات؛ وخُدِم ذلك بأساليب منها:

أسلوب التكرار: برز في السورة الكريمة تكرار لبعض المفردات والتراكيب، ولمّا كانت تعالج العقيدة السليمة وترسخها كان لفظ الجلالة هو الأكثر تكرارا فيها ست وثلاثون مرة، تكرر في سبع آيات منها مرتين في كلّ آية، وفي ذلك دلالة ظاهرة على التذكير بتفرّده تعالى في الألوهية بل سياق الآيات في مواضع التكرار السبع يؤكد ويبيّن على وجه مبرم أنّ لا قدرة لسواه وإن بدا للناس خلاف ذلك وسنام مقصود السورة إبراز قدرته تعالى، ومثال ذلك قوله تعالى: **(وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا)** [فاطر: 45] فالآية يفهم منها إمهال الله عباده على ارتكابهم الذنوب والخطايا، ومعلوم أنّ الترك مع القدرة رحمة ولكنّه في حق غير الله قد يفوت العقاب

ومن أمن العقاب أساء الأدب، وهذا لا يجري على الذات العلية فتكون الآية دليلاً على كمال القدرة له سبحانه أي قادر على إنزال عقوبته بهم في أي وقت شاء من ورائهم الآخرة التي فيها وقت الحساب والجزاء (ابن عطية الأندلسي، 1422 ه، صفحة 4/ 444)، قال أبو حفص النسفي: "ثم بيَّن أن تأخير العذاب عنهم ليس للعجز بل لحكمة" (النسفي، 1440 ه، صفحة 12/ 327). ، وقد ورد اسم الله شكور في القرآن الكريم أربع مرات اثنان منها في سورة فاطر وهي قوله تعالى: **(لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ)** [فاطر، الآية: 30] وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) [فاطر، من الآية: 34]، وتكررت فيها بعض التراكيب ومنها قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي) [فاطر، من الآيات: 12، 19، 22]، ولم يرد هذا التركيب إلاّ في أربع مواضع ثلاثة منها في فاطر، والرابع منها في سورة غافر الآية: 58.

وكذا يميز هذه السورة شيوع الانفرادات اللفظية، وظهر ذلك في المفردات والتراكيب، وأبرزها ما جاء في باب وصف مخلوقاته من الملائك فذكر وصف خلقتها وانفردت هذه السورة بذلك بلفظ "أجنحة"، ومن جمادات الجبال والبحار وغيرها، فجاءت المفردات: قطمير، جدد، حمر، بِيض، غرابيب، سود، حرور، الحَزَن، المُقَامَة، السيئ، ومن الأفعال: يَصْعَد، يصطرخون، أحلّنا.

أسلوب الالتفات: تنوع الالتفات في سورة فاطر فجمعت بين التفات الجنس والتفات الأفعال والتفات الضمائر، فجاء التفات الأفعال في خمس آيات منها ومثلها في التفات الضمائر، ومن ذلك قوله تعالى: **(وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ)** [فاطر، من الآية: 9] انتقلت الآية الفعل الماضي أرسل إلى المضارع تثير من استشعاراً لحال التعجيب في تصريف الله لأسباب الأحوال بين السماء والأرض، فالتعبير بالمضارع وإن دلّ على استمرار الإثارة بالمعنى الأول فهو كذلك في أسلوب البلغاء يساق للدلالة على ذكر خصوصية حال يستغرب، وجيء بالفعل أرسل ماضياً ليوافق الاستدلال بما هو واقع على حال لنظيره في الوقوع (العمادي، بلا، صفحة 7/ 145؛ ابن عاشور، 1984، صفحة 22/ 268) ثمّ عبّر سبحانه بعد المضارع بالزمن الماضي في الفعلين بعده "سقناه" و"أحيينا" دلالة على التحقق والوقوع وفيه إشارة تمام النعمة على خلقه (الألوسي، 1415 ه، صفحة 11/ 345)، وفي ملحظ لإظهار كمال قدرة الله سبحانه التي هي مقصد السورة.

وذكر الرازي أنّ الإتيان بفعل الإرسال ماضياً لكونه مسنداً للباري عزّ وجلّ ويلزم من ذلك وجوب وقوعه سرعته كأنّه كان، فهو تعالى فرغ من كلّ شيء والإرسال منه مقدّر في أزمنة معلومة إلى أماكن معلومة؛ أمّا إسناد الرياح إلى الفعل "يثير" مضارعاً فلكونه يؤلف في زمان (الفخر الرازي، 1420 ه، صفحة 26/ 225)، أمّا العدول من الغيبة في: "أرسل" إلى المتكلم المعظم نفسه في: "سقناه" لبيان كمال اختصاص القدرة الربانية (العمادي، بلا، صفحة 7/ 145).

وجمعت في آيتين منها مواضع لالتفات الجنس وهي قوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)** [فاطر، الآيتان: 27 - 28] فذكر سبحانه الثمار وبيّن إنّها تتباين في ألوانها على الرغم من أنّ ماء واحداً سقاها وأرضاً واحدة جمعت بذورها وذلك منطبق على الجبال، وجاء ذكر الناس والدواب مجملاً لكون التنوع فيها متعدد المظاهر من الطبائع، والألوان، والأشكال، وكلّ ذلك لبيان قدرة الخالق سبحانه على إيجاد التباين والاختلاف في مخلوقاته ذات الأصل الواحد، وفيه إشعار بعظمة الخالق بالنّظر في قدرته على التنويع في مخلوقاته.

أسلوبي المقابلة والطباق: تميزت السورة الكريمة بشيوع أسلوب المقابلة والطباق وهما يخدمان إبراز الحجة وتوضيح الحقائق بإظهار النقيض أو غير المماثل بما يسهل على العاقل اتّباع الحجة، فوقع ذلك في أكثر من عشرين موضعاً منها، ومنها قوله تعالى: **(وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ)** [فاطر، الآية: 9] في الآية دلالة على صدق الرسول وإثبات وقوع البعث، من خلال مقابلة بين البلد الميت وإحياء الأرض فاستدلّ بهذه المقابلة الواقعة ظاهراً على إمكان وقوع نظيرها من الإحياء بعد الموت، (ابن عاشور، 1984، صفحة 22/ 268) وكلّ ذلك وقع دون حاجة إلى إسهاب استدلال لإظهار المقابلة قدرة الله تعالى دون حاجة إلى ذلك.

أمّا الطباق فمنه قوله تعالى- : **(وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ)** [فاطر: 19 - 21] وأُريد بالطباق في هذه الآيات التشنيع على أهل الكفر فشبّه حالاً حسناً بضدّه ليكون أنكى في وصف حالهم مع الوحي.

المطلب الثالث ـ أسلوبية الدلالات اللغوية في مطلع السورتين:

الفرع الأول ـ مستوى المفردة:

يعدّ البيان القرآني بالمفردة من أبرز ما اعتنى به علماء التفسير؛ ولذلك تعقبوا المفردة القرآنية المختلفة في ذات السياق؛ وقد بيّن الراغب الأصفهاني ذلك في إشارته إلى أنّ أول ما يلزم الاشتغال به من علوم القرآن علومه اللفظية، وتحقيق ألفاظه مفردة فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن هو ركن أساس لمن يريد أن يدرك معاني تفسير آياته مجملة (الأصفهاني، 1412 هـ، صفحة ص/ 45). ويؤكد ابن عطية على هذا المعنى من حيث أنّ كلّ مفردة في كتاب الله لا يستقيم سواها في موضعها وهذا وجه من وجوه إعجازه فقال: "كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد" (ابن عطية الأندلسي، 1422 ه، صفحة 1/ 52).

ولمّا كانت كلّ كلمة لا يغني غيرها في سياقها في نظم القرآن الكريم لزم أن يُنظر في دقيق المعنى الذي يضفيه اللفظ على سياقها من حيث مناسبة مقامه في الآية الكريمة، وبالنظر في مستهلّ سورة الأنعام وفاطر تجد ثلاث مفردات تدلّ على الإيجاد وهي: خلق – جعل – فاطر – جاعل؛ لذا لزم النّظر في معانيها الأولية للتعرّف على دلالاتها في السياق القرآني وما تضفيه عليه من معنى لا يؤديه سواها.

لفظ خلـــق: أصل معناه في اللغة وجهان: الأول: تقدير الشيء، الثاني: ملاسة الشيء (الرازي، 1399 هـ، صفحة 2/ 213)، وجاء في استعمال القرآن الكريم في حق الله سبحانه على معنيين هما:

الأول: إنشاء الشيء على غير سابق مثال، ومنه قوله تعالى: **(إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ)** [آل عمران، من الآية: 190] وقوله تعالى: **(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)** [الإسراء، من الآية: 99]، وهو ما صرّح به سبحانه في قوله تعالى: (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) [البقرة، الآية: 117] يراد الإبداع في اللغة: "ابْتِدَاءُ الشَّيْءِ وَصُنْعُهُ لَا عَنْ مِثَال". (الرازي، 1399 هـ، صفحة 1/ 209).

الثاني: إيجاد الشيء من الشيء، ومنه قوله- تعالى- : **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ)** [النساء، من الآية: 1] ، قال الأصفهاني: "الخَلْقُ أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء

من غير أصل ولا احتذاء... ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء". (الأصفهاني، 1412 ه، صفحة 296). ، وأمّا مفردة "الجعل" في اللغة فهي على معانٍ غير منقاسة والفعل منها على معنى الصنع في عمومه فيقال: جَعَلْتُ الشَّيْءَ صنعته. (الرازي، 1399 ه، صفحة 1/ 460 _ 461).

أمّا في استعمال القرآن الكريم فقد جاء على أربعة معانٍ هي: بمعنى أوجد ويتعدّى لمفعول واحد ومنه قوله تعالى: **(وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)** [النحل، من الآية: 78]، وعلى معنى إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه ومثاله قوله تعالى: **(وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ)** [النحل، من الآية: 72]، ومعنى في تصيير الشيء على حالة دون أخرى ومنه قوله تعالى: **(إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)** [الزخرف، الآية: 03]، وبمعنى الحكم بالشيء حقاً كان أو باطلاً على شيء آخر ومثاله قوله تعالى: **(إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)** [القصص: 7] ، وذكر السمين الحلبي في معناه سبعة أوجه وإن كانت في حقيقتها لا تخرج عمّا ذكره الراغب إلاّ أنّه فصّل في ذكرها ولم يسعفه المثال على بعض الأوجه من القرآن الكريم. (السمين الحلبي، 1417 هـ، صفحة 1/ 328).

وبالنظر في استعمال القرآن الكريم للألفاظ السابقة من حيث ورودها في استفتاح السور بعد الحمد يمكن استظهار جمالية النظم من حيث تفرّده بمعنى لا يستقلّ به عن غيره في ظاهر سياق الآية ولكن إنعام النظر في الدلالة المعجمية يبين ما يكسيه اللفظ من معنى خاص لوروده، فلفظ خلق في مستهلّ سورة الأنعام جاء ليبين تقديره في دقيق صنعه للكون إذ أنّ الفعل يحمل معنى التقدير والإيجاد من نظير أو دونه؛ ولذا ناسب في الآية وفي مثيلاتها الإتيان بفعل الخلق لأنّ ما بعده دال على التكوين الأول دون مثال وهذا يحتاج إلى تقدير دقيق يستحيل معه اختلال الموجودات على اختلاف جهاتها وتباين مصلحتها؛ كما أنّ السياق في ذكرهما – السماوات والأرض – ليس سياق بيان أغراضهما وإنّما في معرض بيان إيجاد، وباستقراء الآيات الدالة على ذكر السماء والأرض لا تجدهما مقترنتان بفعل غير – خلق – في هذا المعنى، ويؤكده أنّ اقترانهما بالفعل – جعل – جاء في سياق بيان النظم والأعراض والأغراض التي وضعها فيها جاء ذلك في ستة مواضع ومنها قوله تعالى: **(أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ**

أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ) [النمل: 61] إذ جاء في بيان معالم الأرض ونظم تسخير هذه المعالم في بنية الأرض لتكون صالحة لاستخلاف الناس فيها.

وجاء ذكر الفعل – جعل – مرتبطاً مع السماوات في ذات السياق كذلك في قوله تعالى: **(تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا**) [الفرقان: 61]، وقد بيّن هذا التغاير والاختلاف بين الفعلين – جعل وخلق - ابن عاشور في قوله: "فالتفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدود من فصاحة الكلمات، وإنّ لكل كلمة مع صاحبتها مقاماً، وهو ما يسمى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها" (ابن عاشور، 1984، صفحة 7/ 127).

أمّا مفردة فاطـــر**:** اسم فاعل من فَطَرَ والفاء والطاء والراء أصل واحد ويراد به الدلالة على فتح الشيء وإبرازه، وقول ابن فارس هذا منقاس في معانٍ عدّة منها فطرت الناقة حلبتها بإصبعين، وفُطِر ناب البعير إذا ظهر وبرز، وقالوا: شقّ الشيء طولاً ومنه سمّي الفطر فطراً لشقه الأرض عند خروجه منها وهو في جميع معانيه هنا دالّ على تصدّع الشيء (الرازي، 1399 هـ، صفحة 4/ 510؛ الأصفهاني، 1412 ه، صفحة 640؛ السمين الحلبي، 1417 ه، الصفحات 3/ 239 - 240)، وأمّا معناه الآخر الذي لم يذكره ابن فارس في أصل الجذر فهو الصنع والابتداع وهو ظاهر في قولهم: فطرت المرأة العجين إذا عجنته وخبزته من فورها، وفطر الله سبحانه الخلق خلقهم (الأصفهاني، 1412 هـ، صفحة 640؛ السمين الحلبي، 1417 هـ، الصفحات 3/ 239 - 240).

وقد جاء من الأصل فطر في القرآن الكريم معنى الإنشاء وابتداع الشيء ومثاله قوله تعالى: **(قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٖۖ)** [طه، من الآية: 72]، ومعنى التصدّع والانشقاق قال تعالى: **(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ)** [الانفطار، الآية: 1]، ومعنى طبيعة الشيء وجوهره ومنها قوله تعالى: **(فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ)** [الروم، من الآية: 30].

ولمّا كان العدم هو الأصل في وجود السماوات والأرض جعل سبحانه ما يوجد من تكونهما من كأنّه خلف هذا العدم أو فيه فشقّه سبحانه وخرجتا منه إلى حال الشهادة والعيان (الخفاجي، صفحة 7/ 213). كما يكتنف معنى المفردة جهة أخرى من الأخبار التي ذكرها سبحانه في القرآن الكريم حيث بيّن في قوله تعالى: **(أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ**

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ [الأنبياء: 30] الحال الذي كانت عليه السماء والأرض ووصفهما بالعلماء على ثلاثة معاني وهي:

الأول: أن السماء كانت رَتْقاً لا تُمْطِر والأرض رَتْقاً لا تُنْبِت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات، وهو قول عن ابن عباس في رواية عبد الله بن دينار، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد في رواية.

الثاني: أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين، ففتقهما الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة.

الثالث: أنَّه سبحانه فَتق من الأرض ست أرضين فصارت سبعاً، ومن السماء ست سماوات فصارت سبعاً، رواه السدي عن أشياخه، وابن أبي نجيح عن مجاهد. (الجوزي، 1422 ه، صفحة 3/ 189).

يعدلون: ع، د، ل في اللغة أصل صحيح دالٌّ على معنيين متقابلين هما: الاستواء ومنه مماثلة الشيء للشيء ومساواته به، والآخر: الميل، (الرازي، 1399 ه، صفحة 4/ 246) والكلمة في سياق نظم الآية تحتمل المعنيين فمن ساوى ربّه الذي خلقه وسخّر له السماوات والأرض بغيره ممّا لا يخلق فقد مال عن الفطرة السليمة وانحرف عقله عن التفكير القويم.

الفرع الثاني ـ المستوى الصرفـــــي:

لمّا كانت الصيغ الصرفية مورداً من موارد الاختيار في الألفاظ لا لمعنى اللفظ العام وإنّما لمزية ما يتحقق من خلالها من خصوصية الدلالة على معانيها وما يصوّره في نفس السامع من ظلال لأحوال الكلام بما يناسب السياق ويخدم أغراضه، قال ابن الأثير: "أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلّا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ... ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهماً، وأغمضها طريقاً" (ابن الأثير، بلا، صفحة 2/ 145).

لذا تُعدّ الصيغ الصرفية للألفاظ من أدقّ موازين بناء المعاني لها فاختلاف الاشتقاق ونوعه يؤثر على دقة المعنى، ودقة ورود المفردة في القرآن الكريم جهة من جهات إعجازه، ويتجلى ذلك في مفردة – فاطر – فالمفردة جاءت على صيغة اسم الفاعل الذي من لوازمه كونه للحال والاستقبال للشبه المعنوي واللفظي بالفعل المضارع وثبات الاسم؛ وهو بذلك يعدّ صفة للمعنى والصفة تدلّ على موصوفها بما تحمله من

معنى الحدث (ابن هشام، 1985 م، صفحة 665). فاسم الفاعل أو كما يسميه الكوفيون الفعل الدائم دال على الحدث والحدوث وفاعله (الجرجاوي الأزهري، 2000 م، صفحة 2/ 12، 48).

وهذا مناسب لسياق الآية فالمحل محلّ الإيجاد الثاني وهو الإيجاد ليوم القيامة وحقيقته أنّه يبدأ بأن تتشقّق الأرض فيخرج الناس منها دون سابق حمل وولادة وهو بذلك مخالف لمعتاد ما كان به إنشاؤهم الأول؛ لذلك جاء الجذر فطر الذي يدلّ على ابتداع في الإنشاء وشقّ الشيء لخروج آخر منه على زنة اسم الفاعل ليؤكّد على ثبوت الحدوث فيما سيأتي قال الطيبي: **"(فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ)** صفةٌ لله ومَعرفةٌ إذ لم يجرِ على الفعل، بل أريد به الاستمرار والثبات والدوام"، أي لم يأتي على صيغة الفعل وإن جاز أن يكون التركيب الحمد لله الذي فطر السماوات والأرض.

وقد أشار إلى ذلك الفخر الرازي لمّا ذكر احتمال تأويل الآية على معنيين وقرينته في ذلك معنى جذر مفردة فاطر في الأول، والمعنى الذي تضفيه صيغة اسم الفاعل في التأويل الآخر، فقال: "وعلى هذا فقوله تعالى: **(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ)** يحتمل وجهين الأول: معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس، والثاني: فاطر السماوات والأرض أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض" (الفخر الرازي، 1420 ه، صفحة 26/ 221). ويريد الرازي أنّه سبحانه يفطر السماوات والأرض فيما يأتي من الزمان عند قيام الساعة وهذا المعنى تحمّله اللفظ لكون اسم الفاعل دالٌّ على الحدوث فحكم يقيناً بحدوث فطر السماوات والأرض وإن لم يكن ذلك قد وقع بعد كذلك أنّ هذا الفطر لن يكون على وجه الثبوت لأنّ اسم الفاعل بخلاف الصفة المشبهة فهو يدلّ على ثبوت حدوث الصفة للفعل لا لزومها وبذلك يكون فطر السماوات والأرض عارض غير ثابت لاستقرارهما بعد فطرهما أول مرة ودلالة الأخبار عن يوم القيامة على استقرارهما بعد انفطارهما إيذاناً بوقوع الساعة على حال تبدّل فيه الأرض والسماوات.

وفيه كذلك معنى التكوّن السريع بجامع طرفي معنى الجذر فطر وهما الشّق والابتداع والخلق (ابن عاشور، 1984، صفحة 22/ 249)، وفي حمل اللفظ ثلاثة معاني متغايرة متلائمة مع السياق ضرب من ضروب انفتاح الدلالة فقد جاء جذر - فطر - في الاستعمال القرآني بصيغة جديدة واكتست بهذه الصياغة القرآنية معانٍ مختلفة زائدة عن المعنى الأصل للجذر المستعمل المطروق منها.

وبالنظر في المعاني الأساسية لمفردة جعل وقد جاءت في سورة فاطر على صيغة الفاعل جاعل فأفادت التجدد والديمومة.

أمّا صيغ الأفعال الواردة في الآية الأولى من سورة الأنعام فقد جاءت على صيغة الماضي في ثلاثة أفعال هي: (خلق، جعل، كفروا) وجاءت هذه الأفعال على صيغة الماضي لما فيه من الدلالة على تحقق الأفعال الثلاثة من فاعليها على وجه يشعر بتفرد الفاعلين لهذه الأفعال بها، وهو صادق في إسناد خلق السماوات والأرض لله تعالى وكذلك في إسناد جعل الظلمات والنور إذ لا يتصور وقوع ذلك من سواه سبحانه، ودالة في إسناد الكفر لتلكم الأقوام على تلبسهم به ظاهراً وباطناً. وجاء على صيغة المضارعة في الآية من سورة الأنعام فعل واحد هو: (يعدلون) وفي دلالته على الاستمرار ما يشعر بتجدد الفعل من الذين كفروا ويُظْهِر إصرارهم على فعل الكفر وتمسكهم به مرّة بعد أخرى.

الفرع الثالث ـ مستوى التركيب:

اشتركت السور الخمس بظاهرة تردّد التركيب بين أسلوبي الحذف والعدول فقد اختلف المفسرون في تأويل ثنائه سبحانه وتعالى على نفسه لاستفتاحها بالحمد، وذهبوا في تأويل التركيب إلى رأيين:

الفريق الأول: يرون أنّها جاءت على صيغة الخبر الذي أريد منه الإنشاء إذ لو جاء على صيغة الإنشاء لسلب المعنى المراد من الحمد المراد في الآية وقد ذكر الرازي لهذا التركيب ثلاثة مزايا:

الأولى: تعليم العباد الحمد لفظاً ومعنى، وهذا المعنى أشار إليه الطبري فقال: "ولكنّه جلّ ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل، ثمّ علّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختباراً منه لهم وابتلاء، فقال لهم: قولوا: **(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)**" (الطبري، 1422 ه، صفحة 1/ 139).

الثانية: أنّه إخبار منه تعالى بأنّه مستحق للحمد سواء حمده الحامدون أو كفروا نعمه.

الثالثة: أنّها جاءت في سياق ذكر الحجة عليهم وذكر الحجة بأسلوب الإنشاء أولى وأقرّ في النفس. (الفخر الرازي، 1420 هـ، صفحة 12/ 475)، بينما ذكر السمعاني لهذا العدول عن أسلوب الإنشاء على الخبر فائدتين هما: التعليم والإخبار بأنّه مستحق للحمد (السمعاني، 1418، صفحة 1/ 35).

ولذلك عدل سبحانه في خطابه لعباده عن أسلوب الإنشاء إلى أسلوب الخبر قال ابن عاشور: "فيكون المقصد الأصلي هو الإنشاء ولكن العدول إلى الإخبار لما يتأتى

بواسطة الإخبار من الدلالة على الاستغراق والاختصاص والدوام والثبات" (ابن عاشور، 1984، صفحة 1/ 161).

وقد قدّر أصحاب هذا التأويل فعل طلب - احمدوا – على تقدير فعل المصدر الحمد، أو – قولوا - فعل الأمر – قل – وهو من الأساليب المطروقة عند العرب، ومنه قول الشاعر:

وَرَأَيْتِ زَوْجَكِ فِي الْوَغَى *** مُتَقَلِّدًا سيفًا وَرُمْحًا

(البيت من مجزوء الكامل، بلا نسبة، والشاهد فيه حذف فعل حمل لظهور دلالته في السياق، واكتفى بفعل تقلّد والرمح يحمل لا يتقلّد (الفراء، بلا، صفحة 1/ 473؛ الطبري، 1422 ه، صفحة 1/ 140).

وعلى تقدير الفعل الأول "احمدوا" كان ينبغي أن يأتي المصدر "الحمد" منصوباً لوقوعه مفعولاً مطلقًا حذف عامله ولّما جاز في المصادر النائبة مناب عاملها والتي يضمر في وجودها النّصب على الأصل والرفع على الابتداء عُدِل عن الأصل وقرئ بالرفع للدلالة على عموم الحمد وثبوته لله سبحانه بخلاف النّصب فإنّه يدلّ على التجدد والحدوث أي: أنّ ذلك الحمد المذكور في الآية وهو تقدير الخلق والإيجاد وغيره من المحامد مستحقّ لها سبحانه استحقاقًا دائمًا ثابتًا لا يتبدّل في حال قبل إيجاد الخلق وبعد إيجادهم بما أجراه عليهم من مقادير (البيضاوي، 1418 هـ، صفحة 1/ 27؛ البقاعي، بلا، صفحة 7/ 3).

قال الزجاج: "ويجوز في الكلام أن تقول "الحمدَ" تريد أحمد الله الحمد فاستغنيت عن ذكر "أحمد" لأنّ حال الحمد يجب أن يكون عليها الخلق، إلاّ أن الرفع أحسن وأبلغ في الثناء على الله عز وجل" (الزجاج، 1408 هـ، صفحة 1/ 45).

الفريق الثاني: يرى أصحابه أنّ الحمد على أسلوب الخبر ولا وجه للإنشاء فيه فالله سبحانه يخبر عن أنّه مستحق للحمد وله ذلك سبحانه بلا خلاف وفي كونه خبر تعليم للخلق بالصيغة المثلى لما يقع به حمده سبحانه، ويعترض عليهم بأنّ دخول المتكلم بالحمد في حمد الله سبحانه لا يتأتَ على ذلك مع أنّ المراد منه هو الثناء على الله سبحانه، وحاصل الرّد عليهم أنّ دخوله في الحمد والثناء على الله يتحصل بأمور منها:

1. عموم خبره عن حمد العامة لله إخبار عن حقيقة ثابتة وبذكره ذلك يكون داخلاً في ذلك العموم على رأي الأصوليين فالسياق سياق ذكر خبره عن نفسه من باب أولى.
2. أو أن يكون المتكلم داخلًا في ذلك بلازم العرف فشأن الأمر الذي تواطأ عليه الناس قديمًا أن يقتدي بهم غيرهم فيه، وإخبار المتكلم بأنّه علم بذلك الحمد المستوجب لله سبحانه يدل عرفاً على أنّه مقتدٍ بغيره في ذلك الحمد.

3. قول العبد: الحمد لله معناه؛ أنّ الحمد حق مستحق لذاته تعالى، وقوله: أحمد الله، لا يدل على كونه مستحقًا للحمد لذاته بل أنّ واحدًا من خلقه حمده، وكونه مستحقًا للحمد أولى من اللفظ الدال على أن شخصًا واحدًا حمده (الفخر الرازي، 1420 ه، صفحة 1/ 191، 195 _ 196؛ ابن عاشور، 1984، صفحة 1/ 161).

أمّا لفظ "الذي" وهو الاسم الموصول فقد ناسب وروده في الآية على الرغم من جواز الإتيان باسم الفاعل "خالق" في غير القرآن الكريم لأمرين، **الأول:** أنّ الإتيان باسم الفاعل دالّ على ثبوت حصول الفعل لا ثبوت الوصف به على وجه التخصيص أي يكون خالقًا عند وجود المخلوقات لا عدمها والمراد هنا علمه بأحوالها وتقديره نواميسها قبل وجودها، وقد ألمح إلى ذلك الفخر في قوله: " أن الخلق عبارة عن التقدير وهو في حق الله تعالى عبارة عن علمه بالمعلومات، والعلم بالشيء يصح تقدمه على وجود المعلوم ... فلهذا السبب قال: خلق السماوات والمراد أنّه كان عالما بها قبل وجودها" (الفخر الرازي، 1420 ه، صفحة 12/ 474).

الآخر: أنّ الاسم الموصول بدلالته على العموم قد أوجز استحضار عظمة الخالق دون ذكر الأعراض والجواهر، وفي الاسمية التي يمثلها مع الإتيان بمسمى موصوفها وهو لفظ الجلالة "الله" يقتضي قصر الصفة على ذات المسمى. (الفخر الرازي، 1420 ه، صفحة 12/ 477 _ 478).

وبإمعان النظر في ســـياق الآية يجدها جاءت للدلالة على وجود الصانع وذلك لا يمكن حصوله إلاّ بتخصيص الفاعل المختار ؛ لذا لـزم النّص على الفاعل المختار باسمه وهو لفظ الجلالة "الله " ولمّا نصّ على اسم الفاعل المختار ناسب أن يذكر صفة يكون المسمى موصوفًا بها فالإتيان به صفة لله سبحانه بعد فعل "خلق" الذي يفيد التقدير والتقدير يقتضي العلم أي : أنّه - سبحانه - عالم بأحوال الأكوان قبل حدوثها وبعد حدوثها فنصّ بذلك على صفتين لذاته سبحانه العلم والتقدير فيما كان وفيما سيكون وذلك غاية الإيجاز(الفخر الرازي، 1420 ه، صفحة 12/ 477 _ 478؛ ابن عاشور، 1984، صفحة 7/ 126)، ومعلوم أنّ الاحتجاج بالتقدير أظهر في إقامة الحجة وقد أجرى سبحانه ذلك على لسان إبراهيم في مناجزته للملك في زمانه لمّا جعل أمره بالقتل إماتة وعفوه إحياء فحاجّه إبراهيم بناموس قدّره الله في الكون قبل إنشائه وهو جريان الشمس جهة الشرق فقال: **(قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)** [البقرة، من الآية: 258].

اختلف العلماء في معنى (ثمّ) في قوله تعالى: **(ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ)** إلى أقوال أبرزها:

1. يرى الحسن بن يحيى الجرجاني، والكرماني أنّها جاءت لبيان نكتة فريدة وهي إبراز إنكاره سبحانه وتعالى على الكفار العدل به بعد ما ساق لهم من البينات وما قدّم إليهم من النعم وتعجّب المؤمنين من فعلهم ذلك (الواحدي، 1430 ه، صفحة 8/ 10؛ الكرماني، بلا، صفحة 1/ 351).
2. ذهب أبو حفص النسفي إلى أنّها تفيد معنى التعجيب من اختيارهم الكفر مع علمهم وإقرارهم بأنّ الله سبحانه هو خالق السماوات والأرض (النسفي، 1440 ه، صفحة 6/ 12).
3. ذهب الزمخشري إلى أنّ ثم أفادت في سياق الآية معنى الاستبعاد وتابعه في ذلك الطيبي، أي أنّه تعالى استبعد أن يكفروا به بعد ورود تلكم الحجج والبراهين الدالة على قدرته تعالى (الزمخشري، 1407 ه، صفحة 2/ 4؛ الطيبي، 1434 ه، صفحة 6/ 10).
4. يرى ابن عطية أنّها تحمل معنى التوبيخ لما تُقرّر من معنى المهلة بعد إيراد الحجج وإسباغ النعم، فقال: "ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ ثُمَّ" (ابن عطية الأندلسي، 1422 ه، صفحة 2/ 226).
5. ذهب أبو حيان إلى أنّ (ثمّ) هنا على معناها وهو التراخي والمهلة وردّ قول الزمخشري وابن عطية، وعدّ معنى السياق هو الذي أبرز مفهوم التوبيخ والاستبعاد في تركيب الآية (أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 1420 ه، صفحة 4/ 430).

وبإمعان النظر فإنّ ما ذهب إليه جلّ المفسرين من تحمّل (ثمّ) معنى التوبيخ والاستبعاد هو ممّا تعارف عليه أرباب المعاني فالمفردات في اللغة غير موضوعة لمعانيها في أنفسها وإنّما لما يعرض لها من فوائد عند ضمّ بعضها إلى بعض (الجرجاني، 1413 ه، صفحة 1/ 539).

أمّا فائدة عطفه سبحانه ما قدّم لهم من الدلائل لتكون حجته عليهم بحرف العطف (ثمّ) الذي يفيد التراخي بين المتعاطفين فهو إبراز إمهال الله سبحانه لهم ممّا يدلّ على أنّ الكفر منهم كان مقصوداً؛ فيكون الكافر قد جحد بربه سبحانه بعد مروره بمراحل من المعرفة اللازمة لاتخاذ قرار الكفر أو الإيمان.

في قوله تعالى: **(ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ)** سبيكة قرآنية لم ترد إلاّ مرتين كليهما في سورة الأنعام – الآية الأولى والآية 150 – وهي بديعة في أسلوب نظمها تمثل غاية الدقة في النظم تتضارع مع وجازة تركيبه؛ إذ يحمل صورتين من صور

البلاغة؛ الأولى: الإيجاز، والأخرى: التقديم والتأخير، وكلا الأسلوبين لا ينفرط عن عقد سياق الآية الدال على إنعام الله على خلقه بما يكون آية منه على اختصاصه بالعبادة التي هي أعلى مراتب الحمد.

أمّا أسلوب الإيجاز فينسبك من خلال تعلّق شبه الجملة بربهم بـ"كفروا" فعل وفاعله، والفعل عدل بمعنى الميل وهو فعل لازم استُغنِي عن صلته – مفعوله - لظهور معناها من السياق وفي ذلك إمعان في تسليط التقبيح والتشنيع على الفعل وفيه حثّ على تحقيق محلّ الإنكار والتبكيت وهو الميل (البيضاوي، 1418 ه، صفحة 2/ 153).

قال أبو السعود: "وتركُ المفعولِ لظهوره أو لتوجيه الإنكارِ إلى نفس الفعل بتنزيله منزلةَ اللازم إيذاناً بأنّه المدارُ في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصيةُ المفعول هذا هو الحقيقُ بجزالة التنزيل" (العمادي، بلا، صفحة 3/ 105) فيكون المعنى كيف تميلون عن عبادة الله الذي سخر لكم الكون إنعاماً وتفضلاً عليكم.

أمّا أسلوب التقديم والتأخير فينسبك من خلال تعلّق شبه الجملة "بربهم" بالفعل يعدلون الذي هو على معنى التسوية فيكون متعدياً لمفعوله وحذف المفعول وقُدّم متعلّقه على فعله مناسبة للفاصلة، إذ جاز في غير القرآن الكريم أن يقال: به يعدلون الأوثان، إلاّ أنّ إظهار إمعان الاهتمام بمقام الربوبية الذي يقتضي الحمد والعبادة لذا ناسب إظهار المضمر فعبّر بالرب دون الضمير كما يقتضي حذف المفعول الحثّ على تحقيق مدار الإنكار؛ ليتضارع ذلك مع زيادة التشنيع على فعلهم وتنبيهاً على فساد عقولهم (البيضاوي، 1418 ه، صفحة 2/ 153؛ الإيجي، 2004 م، صفحة 1/ 515).

الخاتمة:

أولاً- النتائج :

أهم النتائج التي توصّل لها البحث ما يأتي:

1- كشف البحث الفروق الدلالية للمفردة القرآنية في السياق الواحد وبيّن أثره في الكشف عن السياق الخاص من خلال مقارنته بالسياق العام للنظم في ذات الموضوع، وظهر ذلك من خلال تتبع مفردتي: خلق، وفاطر.

2- أنّ أسلوب القرآن في إيثاره نظماً دون آخر إنّما يتوخى أعلى مراتب لا البلاغة فحسب بل ودقة وجوه المعاني المتعددة التي ترد على الآية ويظهر ذلك في قوله تعالى: (**ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ**).

3- أنّ الحمد في سورة الأنعام لمّا كان مدعاة النشأة الأولى ناسب فعل "الخلق" الذي من لوازمه كمال العلم والتقدير، ولمّا كان في سورة فاطر مدعاة ديمومة الإبقاء في ناسب اسم الفاعل "فاطر" الذي يدلّل على كمال القدرة.

4- أظهر البحث في أسلوبية السورتين عند عرض موضوعاتها أنّ لكلّ سورة سمة أسلوبية خاصة بها على الرغم من كون السورتين من التنزيل المكي، فسورة فاطر اعتمدت المقابلة والثنائية بين الصور لاستجلاء العقل التفكّر في دقيق تصريف شؤون الخلق، بينما سلك النظم في سورة الأنعام مستوى التلقين والتقرير في صياغة الحوار القرآني لظهور صنعه دون حاجة إلى إرسال العقل في التفكر.

ثانياً ـ التوصيات:

يعدّ موضوع مطالع السور وخواتيمها من أبرز الموضوعات التي لازال البحث فيها غضّاً وغالب الأحيان ما يدار في أثناء بحث مناسبات السور دون تخصيص يذكر وإنّ دراسته من حيث التفسير الأسلوبي يسبر غور دقائق الآية ويبرز تفاصيلها لذلك يوصي الباحث طلبة العلم بالنّظر في هذا الجانب من جوانب تفسير القرآن الكريم ومناسباته.

بيان تضارب المصالح

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ثانياً: الكتب المطبوعة

- إبراهيم بن السري الزجاج. (1408 ه). معاني القرآن وإعرابه، (عبد الجليل عبده شلبي، المحرر) بيروت، لبنان: عالم الكتب.
- إبراهيم بن عمر البقاعي. (بلا). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، مصر: دار الكتاب الإسلامي.
- أحمد الشايب. (2003 م). الأسلوب (المجلد 12). القاهرة، مصر: مكتبة النهضة المصرية.
- أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. (1399 ه). مقاييس اللغة، (عبدالسلام تح: هارون، المحرر) دمشق: دار الفكر.
- إسماعيل بن حماد الجوهري. (1987 م). تاج اللغة وصحاح العربية، (أحمد عبدالغفور عطار، المحرر) بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

- أيوب بن موسى الكفوي. (بلا). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. (عدنان درويش، و محمد المصري، المحررون) بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- تمام حسان. (1993). البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، القاهرة: عالم الكتب.
- جمال الدين عبدالرحمن بن علي الجوزي. (1422 ه). زاد المسير في علم التفسير، (عبد الرزاق المهدي، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- حازم بن محمد القرطاجني. (1986 م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء، (محمد الحبيب ابن الخوجة، المحرر) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- الحسين بن عبد الله الطيبي. (1434 ه). فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، (جميل بني عطا، و إياد الغوج، المحررون) دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
- الحسين بن محمد الأصفهاني. (1412 ه). المفردات في غريب القرآن، (تح: صفوان الداودي، المحرر) دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية.
- خالد بن عبد الله الجرجاوي الأزهري. (2000 م). شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي. (بلا تاريخ). عنايه القاضي وكفاية الراضي، بيروت، لبنان: دار صادر.
- شهاب الدين أحمد بن يوسف السمين الحلبي. (1417 ه). عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، (محمد باسل عيون السود، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- شهاب الدين أحمد بن يوسف السمين الحلبي. (بلا). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. (أحمد محمد الخراط، المحرر) دمشق، سوريا: دار القلم.
- شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي. (1415 ه). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (علي عبد الباري عطية، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير. (بلا). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. (أحمد الحوفي، و بدوي طبانة، المحررون) القاهرة: دار نهضة مصر.
- عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي. (1422 ه). المحرر الوجيز في علوم الكتاب العزيز، (عبد السلام عبد الشافي محمد، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- عبد الرحمن بن محمد خلدون. (2004 م). مقدمة بن خلدون، (عبد الله محمد الدرويش، المحرر) دمشق، سوريا: دار يعرب.
- عبد السلام المسدي. (1982 م). الأسلوبية والأسلوب، طرابلس، ليبيا: الدار العربية للكتاب.
- عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني. (1413 ه). دلائل الإعجاز، (محمود شاكر، المحرر) القاهرة، مصر: مطبعة المدني.
- عبد الله بن عمر البيضاوي. (1418 ه). أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (محمد المرعشلي، المحرر) بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- عبد الله بن يوسف ابن هشام. (1985 م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، (مازن المبارك، و محمد علي حمد الله، المحررون) دمشق: دار الفكر.
- علي بن أحمد الواحدي. (1430 ه). التفسير البسيط، (عبد العزيز بن سطام آل سعود، و تركي بن سهو العتيبي، المحررون) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- علي بن محمد الجرجاني. (1983 م). التعريفات، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

- عمر بن محمد النسفي. (1440 ه). التيسير في التفسير، (أديب حبوش، المحرر) إسطنبول، تركيا: دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث.
- محمد بن أحمد الأزهري. (2001 م). تهذيب اللغة، (محمد عوض مرعب، المحرر) بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- محمد بن جرير الطبري. (1422 ه). جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (عبدالله التركي، المحرر) القاهرة، مصر: دار هجر.
- محمد بن عبد الرحمن الإيجي. (2004 م). جامع البيان في تفسير القرآن، (عبد الحميد هنداوي، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- محمد بن عبد الرحمن القزويني. (بلا). الإيضاح في علوم البلاغة، (محمد عبد المنعم خفاجي، المحرر) بيروت، لبنان: دار الجيل.
- محمد بن عمر الفخر الرازي. (1420 ه). مفاتيح الغيب، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- محمد بن محمد العمادي. (بلا). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي. (1414 ه). لسان العرب، بيروت، لبنان: دار صادر.
- محمد بن يوسف أبو حيان. (1420 ه). البحر المحيط في التفسير، (صدقي العطار، زهير جعيد، وعرفان حسونة، المحررون) بيروت، لبنان: دار الفكر.
- محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور. (1984). تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. تونس: الدار التونسية.
- محمد الغزالي السقا. (2000 م). نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، القاهرة، مصر: دار الشروق.
- محمود بن حمزة الكرماني. (بلا). غرائب التفسير وعجائب التأويل، جدة، بيروت، السعودية، لبنان: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ومؤسسة علوم القرآن.
- محمود شلتوت. (2004 م). تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى، القاهرة، مصر: دار الشروق.
- محمود بن عمر الزمخشري. (1407 ه). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، القاهرة، مصر: دار الريان للتراث – بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- منصور بن محمد السمعاني. (1418). تفسير السمعاني. (ياسر إبراهيم، و غنيم بن عباس بن غنيم، المحررون) الرياض: دار الوطن.
- يحيى بن زياد الفراء. (بلا). معاني القرآن. (أحمد النجاتي، محمد النجار، و عبد الفتاح الشلبي، المحررون) القاهرة، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.